دينامية مشهد المسكن الريفي في محافظة بعلبك–الهرمل: بين التقليد والحداثة

علي حمزة – إيلي الحداد(*)

الملخّص

يشكل هذا البحث مصدرًا توثيقيًا يتكوّن من 34 مشهدًا جغرافيًا. استخدمت هذه المشاهد أساسًا لتحليل تطور المسكن الريفي خلال الفترة الممتدة منذ ما قبل العام 1890 حتى العام 2020 في محافظة بعلبك–الهرمل. وعليه، فقد تم إنشاء قاعدة بيانات عبر التقاط صور فوتوغرافية أوضحت تعاقب أربع مراحل تصف تطور المساكن في بعلبك–الهرمل من ناحية، كذلك عبر إجراء سبع مقابلات ساعدت في شرح الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي ساهمت في ظهور المراحل الأربع السابقة الذكر من ناحية أخرى. يهدف هذا البحث إلى تبيان أشكال المساكن التقليدية والحديثة ومواصفاتها التي تتواجد اليوم في منطقة الدراسة، وإلى إجراء مقارنة بينها.

الكلمات المفاتيح: محافظة بعلبك–الهرمل – المشهد الجغرافي – المسكن الريفي – الجغرافية الريفية.

المقدمة

يرتبط السكن الريفي بتوافر الموارد الطبيعية التي تعتمد عليها الجماعات البشرية لتأمين بقائها. ولطالما ركّزت الدراسات الجغرافية التقليدية على تعلق السكن الريفي الثابت بالنشاط الزراعي، لما يحتّمه هذا النشاط من استقرار للإنسان قرب أرضه الزراعية، ولما يوجبه تأقلم هندسة المسكن مع طبيعة النشاط المذكور ومتطلّباته.

إلا أن الواقع يشير الى حدوث تحولات واضحة في المشهد الخاص بالمنزل الريفي التقليدي القديم[١]. وتعود أسباب هذه التحولات إلى النمو المتزايد للمساكن غير الزراعية (الخاصة بغير المزارعين)

(*) الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

[١] لمزيد من المعلومات حول تصنيف المنازل الريفية التقليدية راجع "Derruau, 1999, pp. 227-234".

إلى جانب المساكن الزراعية (الخاصة بمزارعين) في القرى والبلدات الريفية[٢] من جهة، وإلى التغيّرات المنوطة بوظيفة هذه المساكن وبأوجه استخدامها من جهة أخرى (Pinchemel, 1981, p. 238-239, 243). وقد "كان للحداثة التي لحق بركبها سكان هذه القرى والبلدات أبلغ الأثر في حدوث مثل هذه التحولات" (الحداد؛ كيال، 2019، ص. 51). وعليه، فقد شهد التطور العمراني للمساكن الريفية[٣] في محافظة بعلبك–الهرمل تغيّرات في خصائصها الهندسية، بما يتناسب مع التحوّلات الاقتصادية والاجتماعية التي عرفتها المنطقة.

تم إنشاء محافظة بعلبك–الهرمل وفصلها عن محافظة البقاع بموجب القانون 522 تاريخ 16 تموز 2003، حيث تم تقسيم محافظة البقاع سابقًا إلى محافظتين متمايزتين (البقاع وبعلبك–الهرمل).

تهدف هذه الدراسة إلى التمييز بين مورفولوجية ومواصفات المساكن الريفية التقليدية والمساكن الريفية الحديثة المتواجدة معًا، في الوقت الراهن، في محافظة بعلبك–الهرمل[٤].

تتمحور الإشكالية حول معرفة مدى المحافظة على مكونات الهوية العمرانية التقليدية في ظل اللحاق المحتّم بركب التنمية الاقتصادية والاجتماعية من جهة، ومدى توافق البناء مع البيئة الطبيعية والاجتماعية من جهة أخرى، من خلال دراسة التطور العمراني في المنطقة المدروسة.

يكمن اهتمام الجغرافيين بمثل هذا الموضوع من حيث وجوب الأخذ في الحسبان، المقياسين المكاني والزماني لمعالجته، وذلك بشكل متلازم. وبناءً عليه، تنخرط هذه الدراسة ضمن مجال الجغرافية البشرية عمومًا والجغرافية الريفية خصوصًا.

التقنيات المتبعة في الدراسة:

لبلوغ هدف الدراسة، تم الاعتماد على تقنيّتَي المشهد الجغرافي والمقابلة:

- يُعدّ المشهد الجغرافي، بوصفه أحد مجالات الجغرافية العامة، عبارة عن وصف وتفسير وتحليل للمشهد المدروس مع إمكانية توقّع تطوّره (Richard, 1973, p. 8). ويُشكّل المشهد، حسب جوان–ريالان (Juin-Rialland)، موضوع دراسة واهتمام لدى الجغرافيين المهتمّين بتحليل المناطق الريفية (Juin-Rialland, 2009, p. 17).

---

[٢] بفعل تطوّر وظائف القرى.

[٣] نعني بالمساكن الريفية، المساكن المشيّدة في القرى والبلدات ذات الطابع الريفي.

[٤] تُقسم المساكن الريفية إلى مساكن مأهولة بشكل دائم (أي لفترة ستة أشهر أو أكثر)، ومساكن مأهولة بشكل مؤقت (أي لفترة أقل من ستة أشهر). مع الإشارة إلى أن غالبية المساكن في المنطقة المدروسة هي مساكن مأهولة بشكل دائم.

- بناءً عليه، وكي لا يقتصر المشهد في دراستنا على ما هو مرئي، مُتمَثّلًا فقط بما يُظهره من الأشياء من دون العودة للآليات التي تحكم هذا المشهد والتفاعلات في ما بين العناصر التي تُكوّنه، كان لا بد من اعتماد منهج النظم[٥] في التحليل (cf. Bertrand, 1978, p. 240, 243).
- يتكوّن المشهد موضوع البحث من المسكن الريفي في منطقة بعلبك–الهرمل، وهو عبارة عن صور فوتوغرافية أرضية تم التقاطها خلال العامين 2019–2020.
- هذا وقد مكّنتنا المقابلة من تحديد الفترة الزمنية الخاصة بتشييد كل شكلٍ من أشكال المساكن التي تم رصدها من جهة، ومن جمع المعلومات حول خاصية هذه المساكن من جهة أخرى. وعليه، تم إجراء سبع مقابلات مع عاملين معمّرين في قطاع البناء، مع مهندسين مختصّين ومع مالكي بعض المساكن.

أولًا– المساكن الريفية في مرحلة ما قبل 1890:

حلّت أكواخ الكبكاب[٦] مكان الخيم المصنوعة من وبر الحيوان أو القماش، واعتمدت كمساكن دائمة في مرحلة ما قبل 1890. تتصف هذه المساكن بأنها مبعثرة أي بعيدة عن بعضها، وهي عبارة عن غرفة واحدة؛ أما الحمام فمرتعه الهواء الطلق. يُظهر المشهدان رقم 1–أ ورقم 1–ب الشكل الهندسي الدائري أو شبه الدائري والمواد المستخدمة في بناء هذه المساكن.

مشهد رقم 1–أ: كوخ كبكاب من الخارج.



صورة أرضية أفقية – أرض بيت دندش في الهرمل– السلسلة الغربية لجبال لبنان – وسط ريفي.

---

[٥] في هذا الإطار، يُعرَّف النظام بأنه مجموعة من الأجزاء والعناصر التي تتفاعل في ما بينها بحيث تشكّل كلًا واحدًا له وظائف معينة (طباجة، 2007، ص. 364).

[٦] نبتة تتواجد في المرتفعات الجبلية وهي ذات بنية غير منفذة للمياه.

مشهد رقم 1–ب: كوخ كبكاب من الداخل.



صورة أرضية أفقية بانوراميك – أرض بيت دندش في الهرمل– السلسلة الغربية لجبال لبنان – وسط ريفي.

إن كوخ الكبكاب هو وليد البيئة المحيطة به إن من حيث تأقلمه مع الظروف المناخية السائدة أو من حيث اختيار مواد بنائه المُستخرجة أو المُجمّعة من المجال الجغرافي نفسه الذي يُقام فيه.

يتّخذ السطح شكلًا قبابيًّا مما يحول دون تراكم الثلوج فوقه، ويتكوّن من ارتصاف لنبتة الكبكاب، التي يشكل تكوينها بنية عشبية تتميّز بأنها لا تسمح للأمطار أو للثلوج بالتسرب الى داخل المسكن (مشهد رقم 1–أ)؛ في حين يتكوّن السقف من خشب شجر العرعر (اللّزاب) حصرًا، لما يتصف به هذا النوع من الأخشاب من صلابة ومقاومة للعوامل الطبيعية، وذلك لفترة زمنية طويلة (مشهد رقم 1–ب).

أما الجدران فهي مشيّدة من تراب أي طين من الداخل، ومغلّفة من الخارج بأحجار صخرية مقصوبة غير مصقولة الجوانب بشكل محترف وذات أحجام مختلفة (مشهد رقم 1–أ). ومن الداخل، يتم إقامة تجاويف في هذه الجدران تُستخدم لحفظ الطعام ولترتيب الأغراض (مشهد رقم 1–ب). وكان الباب قديمًا مصنوعًا من الخشب.

يتم إنشاء أكواخ الكبكاب هذه، إلى يومنا هذا، من قبل المزارعين وبالقرب من أراضيهم الزراعية، علمًا أنه قد يُستبدل الباب الخشبي أحيانًا بباب من الحديد. إلا أن إقامة هذا الشكل من المساكن حاليًا يظل أمرًا قليل الانتشار، لا بل استثنائيًا ونادرًا، وهو منوط بأهداف خاصة تتعلّق بضرورة الإشراف على الأرض، خصوصًا حين يكون مسكن المزارع الدائم بعيدًا من أرضه الزراعية من جهة، وبوجوب إيجاد مخزن صغير لبعض الأدوات الزراعية من جهة أخرى. ولعل استذكار الماضي وإعادة إحياء التراث، هما من أهم أسباب العودة، ولو استثنائيًّا، إلى بناء هذا الشكل من المساكن.

ثانيًا– المرحلة ما بين 1890 حتى بداية ستينيات القرن العشرين:

تضافرت عدة عوامل طبيعية وبشرية أدّت الى تغييرات في أشكال القرى والمساكن؛ فالبحث عن الأمان، والسعي إلى إقامة علاقات اجتماعية اقتضيا تشييد مساكن قريبة من بعضها البعض. كما أن الحاجة إلى مساحات أكبر للسكن أوجبت الانتقال إلى بناء مساكن مؤلفة من أكثر من غرفة.

تتكوّن المساكن المبنية خلال هذه الفترة من جدران ترابية أي طينية وسطها حجر (مشهد رقم 2–أ)، ومن سقوف خشبية (مشهد رقم 2–ب) تعلوها طبقة ترابية أي طينية مخلوطة بقش تشكّل الأسطح (مشهد رقم 2–ج). وكان السكّان يحدلون هذه الأسطح في فصل الشتاء، وبشكل شبه يومي، لازالة مياه الأمطار عنها[٧] ومنع تسربها إلى داخل المسكن؛ مع الإشارة إلى لجوء بعضهم إلى تغليف جدران مساكنهم الترابية بالحجر الصخري المقصوب من الخارج (مشهد رقم 3).

وفي مرحلة أولى من تشييد هذا الشكل من المساكن، كانت الأبواب مصنوعة من الخشب (مشهد رقم 2–أ ومشهد رقم 3)، أما في مرحلة ثانية فقد أُعتمد على الحديد في صنعها (مشهد رقم 4–أ).


مشهد رقم 2–أ: بقايا مسكن ذات سطح ترابي وسقف خشبي وجدران ترابية أي طينية وسطها حجر.



صورة أرضية أفقية – حام – السلسلة الشرقية لجبال لبنان – وسط ريفي.

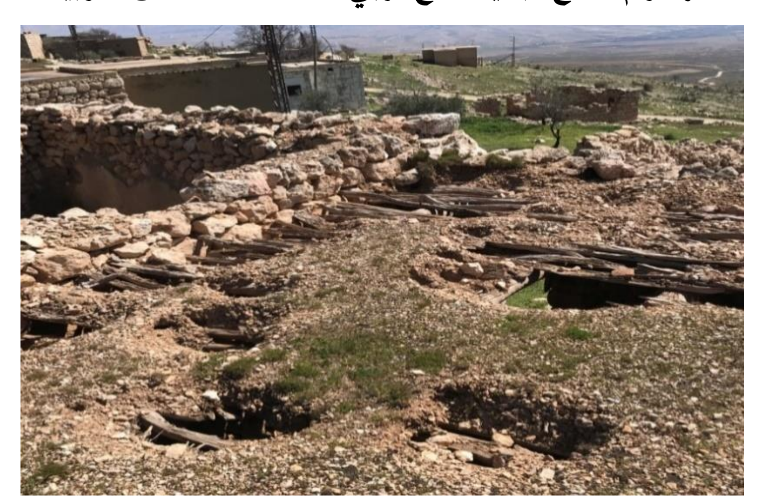
[٧] عبر جرّها الى أطراف الأسطح.

مشهد رقم 2–ب: سقف من خشب داخل أحد المساكن الترابية.



صورة أرضية مائلة – بلدة جديدة الفاكهة – السلسلة الغربية لجبال لبنان – وسط ريفي.

مشهد رقم 2–ج: بقايا سطح ترابي عائد لأحد المساكن الترابية.



صورة أرضية مائلة – الخربة في وادي فعرا – السلسلة الغربية لجبال لبنان – وسط ريفي.

مشهد رقم 3: مسكن ترابي أي طيني جدرانه مغلّفة بحجر صخري مقصوب.



صورة أرضية أفقية – بلدة حلبتا – السلسلة الغربية لجبال لبنان – وسط ريفي.

يذكر أنه قد تم تحديث عددٍ من المساكن الترابية التي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، وهي تشكل إرثًا ثقافيًّا لأبناء المنطقة؛ مع الإشارة إلى أنّه عند تحديث بعضٍ من هذه المساكن القديمة، تمت إزالة الأسطح الترابية واستبدالها بأسطح إسمنتية (مشهد رقم 4–أ ومشهد رقم 4–ب).


مشهد رقم 4–أ: مسكن محدَّث ذو سطح إسمنتي وجدران ترابية أي طينية وسطها حجر.



صورة أرضية أفقية – بلدة الخريبة – السلسلة الشرقية لجبال لبنان – وسط ريفي.

مشهد رقم 4–ب: مساكن محدَّثة ذات أسطح أسمنتية وجدران ترابية أي طينية، وسطها حجر ومغلفة أم لا بحجر مقصوب.



صورة أرضية مائلة – حورتعلا – السلسلة الشرقية لجبال لبنان – وسط ريفي.

تتميز هذه المساكن ببساطة هندستها الداخلية، فهي تتألف غالبًا من:

- غرفة تُستخدم للجلوس والطعام واستقبال الزوار والمنامة في آن واحد، مع إقامة موقدة في زاوية الغرفة[٨] (مشهد رقم 5–أ ومشهد رقم 5–ب)؛
- غرفة تربّى فيها الحيوانات (مشهد رقم 6)؛
- فناء خارجي، يُعرف لدى سكان المنطقة المدروسة بـ"الصِيرَة"، مُحاط بسياج حجري، يُستخدم لجمع الحيوانات (مشهد رقم 7–أ)، ولإقامة المطبخ (مشهد رقم 7–ب)، مع وجود الحمام في إحدى زوايا الفناء (مشهد رقم 7–ج).

مشهد رقم 5–أ: غرفة جلوس وطعام واستقبال ومنامة في مسكن ترابي أي طيني، تظهر فيها الموقدة.



صورة أرضية أفقية – زبود – سفح السلسلة الغربية لجبال لبنان – وسط ريفي.

[٨] في فترات لاحقة للمراحل الأولى من بناء هذا الشكل من المساكن، استعيض عن الموقدة بمدفأة تعمل على المازوت أو الحطب.

مشهد رقم 5–ب: غرفة جلوس وطعام واستقبال ومنامة في مسكن ترابي أي طيني.



صورة أرضية أفقية – الزويتيني – سفح السلسلة الغربية لجبال لبنان – وسط ريفي.

مشهد رقم 6: غرفة لتربية الحيوانات تابعة لمسكن ترابي أي طيني.



صورة أرضية أفقية – بلدة حلبتا – السلسلة الغربية لجبال لبنان – وسط ريفي.



مشهد رقم 7–أ: فناء خارجي (صِيرَة) تابع لمسكن ترابي أي طيني.



صورة أرضية مائلة – العقبة في وادي فعرا– السلسلة الغربية لجبال لبنان – وسط ريفي.

مشهد رقم 7–ب: مطبخ خارجي ضمن فناء خارجي تابع لمسكن جدرانه ترابية أي طينية ملبّسة بحجر صخري مقصوب.



صورة أرضية أفقية – معربون – السلسلة الشرقية لجبال لبنان – وسط ريفي.

مشهد رقم 7–ج: حمّام محدَّث، جدرانه من حجر الخفّان وسطحه إسمنتي، ضمن فناء خارجي تابع لمسكن ترابي أي طيني.



صورة أرضية أفقية – حربتا – السلسلة الغربية لجبال لبنان – وسط ريفي.

تتطوّر الهندسة الداخلية للمساكن الترابية أي الطينية، وتكبر مساحتها، بحسب المستوى المعيشي للأسرة؛ فالأشخاص النافذون وأصحاب الأملاك والأموال، كانوا قادرين على تشييد مساكن تحتوي على عدة غرف ومطبخ وحمام، على باحة داخلية تعرف بـ"الليوان" (مشهد رقم 8–أ)، وأيضًا على باحة خارجية كبيرة في فناء الدار (مشهد رقم 8–ب).

مشهد رقم 8–أ: ليوان محدَّث في مسكن ترابي أي طيني، أرضيَّته من الإسمنت[٩].



صورة أرضية أفقية – النبي شيث – السلسلة الشرقية لجبال لبنان – وسط ريفي متحول.

[٩] صورة تعود إلى منزل مختار البلدة في تلك الفترة، وقد تم إضافة الطلاء إلى جدران الليوان حديثًا.

مشهد رقم 8–ب: باحة خارجية في مسكن ترابي أي طيني محدَّث[١٠].



صورة أرضية أفقية – النبي شيث – السلسلة الشرقية لجبال لبنان – وسط ريفي متحول.

يلحظ أن معظم مواد البناء المستخدمة في تشييد هذه المساكن، كانت مستخرجة من البيئة المحيطة بها؛ ونقصد بمواد البناء هنا، الأحجار والأخشاب والطين والقش، باستثناء المواد التي أُدخلت عند تحديث هذه المساكن في الفترة الأخيرة، وخصوصًا مادة الإسمنت.

ثالثًا– مرحلة ما بين بداية ستينيات القرن العشرين ومنتصف الثمانينيات منه:

تغيّر شكل المسكن تغيّرًا جذريًّا في هذه المرحلة، وتم الاعتماد على الإسمنت والحديد بوصفهما المواد الأساسية المستخدمة في البناء، وهي مواد لا تتعلق أبدًا بالبيئة المحيطة. باتت الجدران عبارة عن رصفٍ من حجر الخفان، والأرضية مغطاة بالإسمنت أو الإسمنت الذي يعلوه البلاط، أما الأسقف فأضحت إسمنتية تحتوي على كميات كبيرة من الحديد الذي يكسبها متانة أكبر. هذه البُنى جميعها قائمة على أساسات حديدية وإسمنتية تمثل قاعدة المسكن.

أما بالنسبة إلى حجر الخفان الذي تُصنع منه الجدران، فيكون إما مغلّفًا بباطون أي بورقة من الإسمنت دون طلاء (مشهد رقم 9–أ)، أو مغلّفًا بباطون ومطليًّا بمواد خاصة كالدهان أو الدهان الممزوج مع الرمل (مشهد رقم 9–ب)، أو مغلّفًا بباطون، وملبّسًا بحجر صخري مقصوب[١١](مشهد رقم 9–ج)، وإما خامًا غير مكسي (مشهد رقم 9–د)؛ مع الإشارة إلى أن الحجر المقصوب مُستخرج بمعظمه من المنطقة، مما يخفّف من كلفته.

---

[١٠] صورة تعود إلى منزل مختار البلدة في تلك الفترة، وقد تم إضافة الطلاء إلى الجدران الترابية من الخارج، كذلك إضافة البلاط على الباحة الخارجية حديثًا.

[١١] يكون التلبيس بحجر إما بشكل كلّي أو بشكل جزئي.

مشهد رقم 9-أ: مسكن ذو جدران من حجر الخفّان، مغلّفة بباطون أي بورقة من الإسمنت دون طلاء.



صورة أرضية مائلة – النبي شيث – السلسلة الشرقية لجبال لبنان – وسط ريفي.

مشهد رقم 9-ب: مسكن ذو جدران من حجر الخفّان، مطليّة بمواد خاصة عبارة عن دهان ودهان ممزوج مع الرمل.



صورة أرضية مائلة – الخضر – السلسلة الشرقية لجبال لبنان – وسط ريفي.

مشهد رقم 9–ج: مسكن ذو جدران من حجر الخفّان، مغلّفة بباطون وملبّسة بحجر صخري مقصوب.



صورة أفقية أرضية – سرعين التحتا – السلسلة الشرقية لجبال لبنان – وسط ريفي.

مشهد رقم 9–د: مسكن مأهول ذو جدران من حجر الخفّان الخام غير مكسية.



صورة أرضية أفقية – الخضر – السلسلة الشرقية لجبال لبنان – وسط ريفي.

تأخذ هذه المساكن الإسمنتية أشكالاً عديدة، نذكر أبرزها:

- مساكن مستقلّة بسيطة، مربّعة الشكل، مؤلفة من طابق واحد، وهي في الغالب عبارة عن غرفتين أو ثلاث غرف، إضافةً الى مطبخ وحمام صغيرين، علمًا أن سكانها يعتمدون بشكل أساسي، على نشاط غير زراعي (مشهد رقم 10).
- مساكن مستقلّة مستطيلة الشكل بعدة مداخل، من طابق واحد، للمعتمدين أساسًا في معيشتهم على الزراعة وتربية الحيوانات؛ تتألف هذه المساكن من عدة غرف، تخصص عادة إثنتين منها، واحدة للجلوس والطعام وأخرى للمنامة، بينما تخصص باقي الغرف لترتيب المعدات، وتخزين احتياطي الأعلاف ("تبّان")، وإقامة إسطبل يصطفّ طوليًا مع هذه الغرف أحيانًا، أو يأتي ملاصقًا للمسكن من الخلف أحيانًا أخرى؛ أما الحمام فيكون إما متراصفًا مع هذه الغرف أو مستقلاً ومقابلاً لها على بعد أمتار؛ كما تطلّ هذه المساكن من الأمام، أي لجهة المداخل، على فناء يأخذ غالبًا شكلاً طوليًا (مشهد رقم 11).
- مساكن مستقلّة من طابق واحد، مؤلّفة من دار واسعة تُستخدم للجلوس[١٢]، تتفرع منها مباشرةً عدة غرف، علمًا أن هذه الغرف تتكوّن عادةً من غرف نوم، بالإضافة إلى مطبخ[١٣] وحمام (مشهد رقم 12–أ)؛ مع الإشارة إلى أنه يُلحق بهذا الشكل من المساكن، في حال كان يعتمد قاطنوها في معيشتهم على الزراعة وتربية الحيوانات، إسطبل وغرفة معدات زراعية؛ تكون أبواب الغرف مصنوعة غالبًا من الحديد؛ كما قد يكون موضع الحمام، خلافًا لما ذكر سابقًا، خارج المنزل قرب الإسطبل وقرب غرفة المعدات الزراعية (مشهد رقم 12–ب). تتضمن هذه المساكن في أغلب الأحيان شرفة او أكثر.
- مساكن من طابقين (أرضي وأوّل)، يتألّف الطابق الأرضي من مخازن مفتوحة اجمالًا على بعضها البعض، تُستخدم لترتيب المعدات الزراعية (جرار زراعي، زرّاعات، معدات للري، الخ.) في مواسم الزرع، و/أو كمخازن مؤقتة للمحاصيل، خصوصًا البطاطا والشمندر والقمح، في مواسم الحصاد؛ أما الطابق الأول، فيتألّف من غرف الجلوس والطعام والنوم، إضافة إلى مطبخ[١٤] وحمام، أو أكثر، وشرفة أو أكثر؛ علمًا أن هذه الغرف متفرّعة من رواقٍ ضيّق نسبيًّا يمتد من المدخل. تتميّز هذه المساكن عن سابقاتها بزيادة عدد الغرف، وبتجهيز هذه الغرف بأثاث أكثر فخامة. والجدير بالذكر أن هذا الشكل من المساكن الزراعية، وبما يمثّله من تقسيم

[١٢] أو للجلوس والطعام.
[١٣] يُلحق بالمطبخ، في أغلب الأحيان، غرفة مؤونة.
[١٤] يُلحق بالمطبخ، في أغلب الأحيان، غرفة مؤونة.

جديد للمساحة المبنيّة، كان قد ظهر مع تغيّر النمط الزراعي في المنطقة المدروسة من نمط زراعي اكتفائي– معيشي إلى نمط زراعي تجاري (مشهد رقم 13).

نشير أيضًا إلى بروز مساكن من طابقين، عبارة عن وحدتين سكنيتين منفصلتين، تشبه كلٌ منها الطابق الأول السالف الذكر والوصف، دونما وجود للمخازن الزراعية؛ يقطن هذا النوع من المساكن إجمالًا سكانٌ يعتمدون بشكل أساسي على نشاطٍ غير زراعي.



مشهد رقم 10: مسكن مستقل بسيط، من طابق واحد، إسمنتي، مربّع الشكل.



صورة أرضية أفقية – وادي الرطل – السلسلة الغربية لجبال لبنان – وسط ريفي.

مشهد رقم 11: مسكن مستقل، من طابق واحد، إسمنتي، مستطيل الشكل بعدة مداخل.



صورة أرضية أفقية – الخضر– السلسلة الشرقية لجبال لبنان – وسط ريفي.

مشهد رقم 12–أ: مسكن زراعي مستقل، من طابق واحد، إسمنتي ذو دار واسعة تتفرّع منها الغرف.



صورة أرضية أفقية بانوراميك - المحليسة وادي فعرا - السلسلة الغربية لجبال لبنان - وسط ريفي.

مشهد رقم 12–ب: حمام خارجي قرب الإسطبل في مسكن زراعي إسمنتي مستقل ذو دار واسعة تتفرع منها الغرف.



صورة أرضية أفقية – المحليسة وادي فعرا – السلسلة الغربية لجبال لبنان – وسط ريفي.

مشهد رقم 13: مسكن إسمنتي من طابقين، الأول عبارة عن مخزن زراعي والثاني مخصص للسكن العائلي.



صورة أرضية أفقية – سرعين التحتا – السلسلة الشرقية لجبال لبنان – وسط ريفي.

رابعًا– مرحلة ما بعد منتصف ثمانينيات القرن العشرين:

أدى ازدياد أعداد السكان وارتفاع مستواهم المعيشي، إلى توسّع عمراني كبير في القرى، خصوصًا تلك التي تتركز في السفوح الشرقية للسلسلة الغربية، والسفوح الغربية للسلسلة الشرقية. جرى التوسّع العمراني باتجاه السهل والجبل.

تُرجم هذا التوسّع العمراني من جهة بتوسّع أفقي، ومن جهة أخرى بتوسّع رأسي وفق مبانٍ تتألف من عدة طبقات (مشهد رقم 14–أ ومشهد رقم 14–ب)؛ وقد كان لتفتيت الملكيات بالإرث، وضيق الرقع لإنشاء المساكن الجديدة، في بعض القرى والبلدات، أثره على اللجوء إلى التوسّع الرأسي.

مشهد رقم 14–أ: قرية الخضر بعد التوسّع الأفقي باتجاه السهل والتوسع الرأسي.



صورة أرضية مائلة – الخضر – السلسلة الشرقية لجبال لبنان – وسط ريفي.

مشهد رقم 14–ب: بلدة النبي شيث بعد التوسّع الأفقي باتجاه الجبل والتوسع الرأسي.



صورة أرضية مائلة – النبي شيث – السلسلة الشرقية لجبال لبنان – وسط ريفي متحوّل.

عرفت المنطقة المدروسة، خلال هذه المرحلة، انتشارًا سريعًا للمساكن ذات المواصفات المعمارية الحديثة عالية الجودة، جنبًا إلى جنب مع المساكن ذات المواصفات المعمارية التقليدية البسيطة، خصوصًا بعد أن ازدهرت زراعة نبتتي الحشيش والأفيون، وبعد أن تعددت وظائف السكان في شتى القطاعات.

وعليه، ظهر تنوّع كبير في أشكال المساكن المشيّدة، إن من حيث الشكل الخارجي المتعدد المواد المستخدمة والألوان أو من حيث التقسيم الداخلي. وبحسب الشمّري (2011، ص. 7)، يعدّ التطوير في التقسيم الداخلي من جهة، والتحسين في نوعية المواد المستخدمة في البناء من جهة أخرى، مؤشرين مهمين لازدهار الحالة الاقتصادية، ولتقدّم الحالة الاجتماعية لشاغلي المساكن؛ هذا وقد أصبحت الاستعانة، من أهالي المنطقة، بمهندسين متخصصين في المجال العمراني، أكثر شيوعًا من قبل.

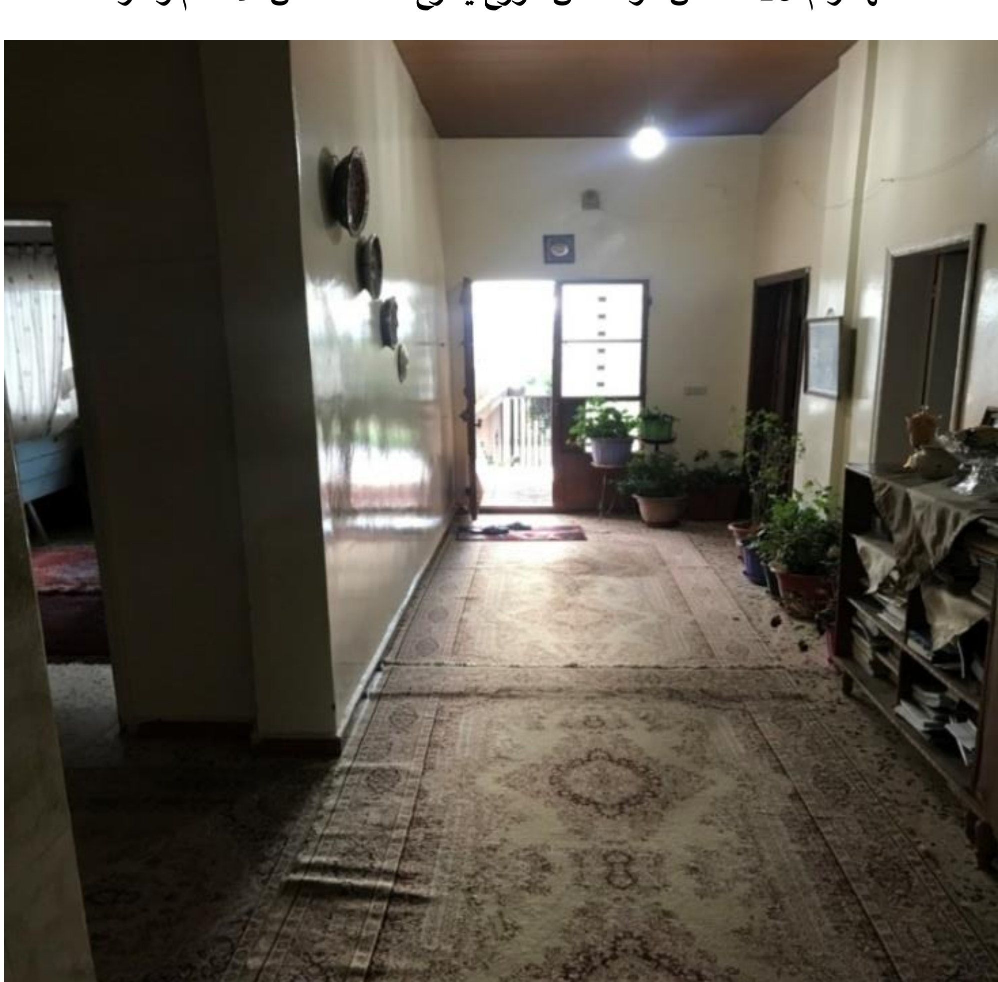
ومن بين أشكال المساكن الأكثر نموذجية، الخاصة بهذه المرحلة، نذكر:

- المساكن التي هي عبارة عن طابق واحد مستقل، أو عبارة عن طابق واحد ضمن بناء متعدد الطبقات[١٥]، والمؤلفة من قاعة مدخل (موزّع)[١٦] يتفرّع منها عدد من الأقسام والغرف (مشهد رقم 15)؛ تتكوّن هذه الأقسام والغرف من غرف للنوم، وصالون، وغرفة طعام، وغرفة جلوس، بالإضافة إلى مطبخ[١٧]، وحمام أو أكثر مع متخت فوق كل حمام، وشرفة أو أكثر.

[١٥] مشروع سكني يضم أسرًا من عائلات مختلفة، قد لا يكون بينها أي صلة قربى، أو عدة وحدات سكنية تسكنها أسر من العائلة نفسها.
[١٦] Hall d'entrée ⁄ Entrance hall.
[١٧] يُلحق بالمطبخ، في أغلب الأحيان، غرفة مؤونة.

- المساكن التي هي عبارة عن فيلات وقصور بأحجام مختلفة (مشهد رقم 16)، منها ما هو كبير، ومنها ما هو متوسط الحجم، وهي غالبًا ما تكون مُحاطة بسور خارجي. يتألف هذا الشكل من المساكن من طبقتين (Duplex) أو ثلاث طبقات (Triplex)، حيث تتواجد عادةً غرف النوم في الطوابق العلوية، بينما تكون غرف الجلوس والطعام والصالون، كذلك المطبخ في الطابق السفلي[١٨]؛ أما الحمامات فقد أصبح عدد منها يتواجد داخل غرف النوم. تتضمن هذه المساكن عددًا من الشرفات.

مشهد رقم 15: مسكن مؤلف من موزّع يتفرّع منه عدد من الأقسام والغرف.



صورة أرضية أفقية – حوش النبي – منطقة السهل – وسط ريفي متحول.

[١٨] يُلحق بالمطبخ، في أغلب الأحيان، غرفة مؤونة.

مشهد رقم 16: فيلا من ثلاث طبقات (Triplex).

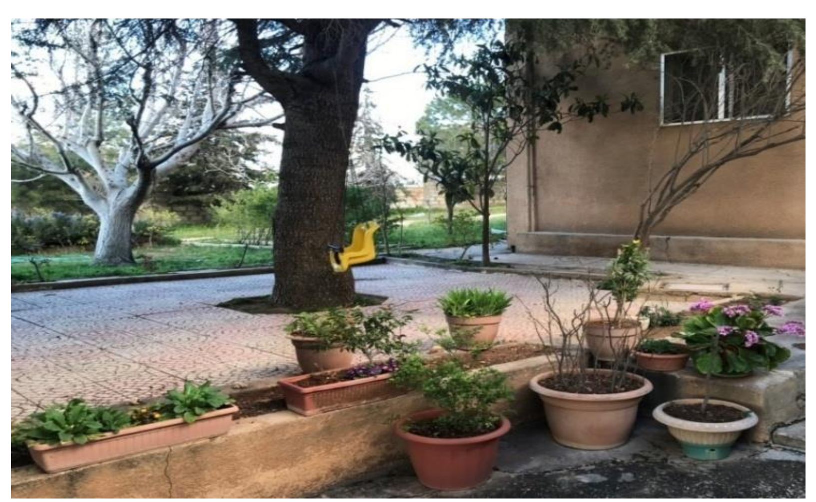


صورة أرضية مائلة – دورس – منطقة السهل – وسط ريفي متحول.

وفي أحيان كثيرة، يُلحق بهذه المساكن وضمن أطرها الخارجية:

- حديقة[١٩] تُزرع بأصنافٍ متعددة كالخضار والجذور والأشجار المثمرة، إضافة إلى الزهور وأشجار ونباتات الزينة المختلفة الأنواع (مشهد رقم 17)؛
- بيت ناطور في حالة بعض التجمعات السكنية، والفيلات والقصور (مشهد رقم 18)؛
- مزرعة خيل في حالة بعض الفيلات والقصور؛
- غرفة معدّات تحتوي على أغراض وأدوات مختلفة؛
- خم دجاج أو برج حمام (مشهد رقم 19).

مشهد رقم 17: حديقة أمام مسكن.



صورة أرضية أفقية – الخضر– السلسلة الشرقية لجبال لبنان – وسط ريفي.

[١٩] تختلف طريقة ومستوى تنظيم الحدائق كما تختلف مساحتها بين مسكن وآخر.

مشهد رقم 18: بيت ناطور جدرانه ملبّسة بحجر صخري مقصوب يعلو سطحه قرميد تابع لفيلا.



صورة أرضية مائلة – قصرنبا – السلسلة الغربية لجبال لبنان – وسط ريفي.

مشهد رقم 19: مسكن يحتوي على خم دجاج وبرج حمام.



صورة أرضية أفقية – يونين – السلسلة الشرقية لجبال لبنان – وسط ريفي.

من الخارج، تم تلبيس جدران بعض المساكن المستقلة والمساكن المتعددة الطبقات والفيلات والقصور بالحجر الصخري المقصوب المُستخرج من مقالع المنطقة، أو تم طليَها بالـMaplexine أو الإثنين معًا[٢٠]؛ هذا مع اللجوء إلى إضافة القرميد أكثر فأكثر، مع العلم أن القرميد لا يعدّ من الأساس التراثي الذي يدخل في مواد البناء التابعة لمساكن ريف محافظة بعلبك–الهرمل (مشهد رقم 20–أ ومشهد رقم 20–ب).

[٢٠] حيث تكون بعض مساحات الجدران ملبسة بالحجر الصخري المقصوب وبعضها الآخر مغلف بالـ Maplexine.



مشهد رقم 20–أ: مسكن من طابقين جدرانه ملبّسة بحجر صخري مقصوب.



صورة أرضية مائلة – حزين – منطقة السهل في البقاع اشمالي– وسط ريفي.

مشهد رقم 21–ب: فيلا بعض جدرانها ملبّس بحجر صخري مقصوب وبعضها الآخر مطليّ بالـ(Maplexine) يعلو أسطحها قرميد.



صورة أرضية افقية – جبولة – السلسلة الغربية لجبال لبنان – وسط ريفي.

يذكر أن بعض العناصر والأشكال العمرانية المعتمدة خلال المرحلتين الثالثة (ما بين بداية ستينيات القرن العشرين ومنتصف الثمانينيات منه) والرابعة (ما بعد منتصف ثمانينيات القرن العشرين) لا تتوافق مع البيئة الجغرافية المحيطة، مما استدعى البحث عن حلولٍ للمشكلات الناجمة عن عدم هذا التوافق؛ بدأت هذه الحلول بالظهور خاصة خلال المرحلة الرابعة:

- يتبيّن أن فكرة السطح المنبسط، المعتمدة في كثير من المساكن، غير مؤاتية للظروف البيئية المحيطة. ففي الحقيقة، يصبح هذا النوع من الأسطح، وبعد مضي فترة من الزمن، غير آمن للسكان بفعل تشققه، حيث تتسبب الشقوق بتسرب المياه إلى الداخل في فصل الشتاء؛ ولتجنّب هذه المشكلة، تم تشييد مساكن بأسطح مائلة (جملون أو قرميد) أو تم إضافة القرميد على أسطحٍ أفقية مشيّدة سابقًا كحلٍّ أول؛ كما تم مَدّ مواد عازلة[٢١]، كالإسفلت أو البولي يوريثان[٢٢] (مادة مطاطية)، فوق الأسطح الأفقية كحلٍّ ثانٍ.
- تعاني مساكن المنطقة مشكلة تسرب للمياه في جدرانها ذات التوجه الجنوبي والجنوبي الغربي، بغضّ النظر عمّا إذا كانت هذه الجدران ترابية، أو مكوّنة من حجر الخفّان على اختلاف أوجه تغليفه أو تلبيسه (أنظر الفقرة ثالثًا). ففي الواقع، تتعرّض جدران المساكن للأمطار التي تحملها الرياح الجنوبية والجنوبية الغربية، الأكثر سيطرة في منطقة الدراسة، إثر تعرّض هذه المنطقة للمنخفضات الجوية، فتتسرّب مياه الأمطار إلى داخل المساكن على شكل قطرات، أو على شكل رطوبة، ما يحدث تخريبًا في الطلاء الخارجي والداخلي، وفي الأثاث المنزلي، والديكورات في معظم الأحيان.

نتيجة لهذه الأضرار، بدأ السكان، ومنذ سنوات قليلة، بإيجاد حلول أخذت تتبلور شيئًا فشيئًا. يتمظهر الحل الأول على شكل مواد مانعة للنش والتسرب تعرف بالراتنج[٢٣]، تُطلى وقائيًّا بعد إنشاء المسكن فوق الجدران المكسوّة بمواد مختلفة. أما الحل الثاني فيتمثّل باعتماد صفّين من الجدران كعامل مساعد في منع تسرّب المياه إلى داخل المسكن ولعزل الحرارة؛ وقد بدأ هذا الحل بالظهور في الآونة الأخيرة، وتحديدًا منذ منتصف العقد الأول من القرن الواحد والعشرين.

الخلاصة:

ألقت هذه الدراسة الضوء على فصلٍ من تاريخ منطقة بعلبك–الهرمل، من خلال دراسة التطور العمراني فيها، وبالاعتماد على مقاربة "جيو– نُظمية" قائمة على تحليل المسكن الريفي باعتباره مشهدًا جغرافيًّا بامتياز.

وطالما أن الهدف من الجغرافية هو دراسة الإنسان في علاقاته بالمحيط، فإنه لا يمكن للجغرافي أن يكتفي بالملاحظة، بل يجب عليه شرح الحقائق (Perigord, 1991, p. 326)، لذلك استخدمنا تقنية المقابلة كتقنية مكمّلة لدراسة المشهد الجغرافي.

[٢١] لا تعدّ هذه المواد العازلة حلاً طويل الأمد لأنها تتعرض للتلف، وتذهب فعاليتها كمانع للتسرب بعد عدّة سنوات من وضعها.

[٢٢] Polyuréthane (PU) / Polyurethane (PU).

[٢٣] Résine ⁄ Resin.

خَلُصت الدراسة إلى إظهار واقع دينامية العمران، خلال الحقبة الممتدة منذ ما قبل 1890 حتى 2020؛ ومن الممكن إيجاز هذه الدينامية كما يلي:

- الرجوع إلى بعض الأشكال العمرانية القديمة أو التقليدية كما هو الحال في ما يخصّ إعادة بناء أكواخ الكبكاب في الأراضي الزراعية البعيدة من التجمعات السكنية (أرض بيت دندش).
- محافظة السكان، خلال التطور العمراني في المنطقة المدروسة، على بعض المساكن التقليدية القديمة مع اللجوء إلى ترميمها وتحديثها بما يتناسب مع تحسين شروط بقاء السكن فيها (منع النش، استبدال الأسطح الإسمنتية بأسطح ترابية لتجنّب تسرّب المياه إلى داخل المسكن، تغيير المدافئ، تحويل الأبواب الخشبية الى أبواب حديدية، الخ).
- تشييد مساكن جديدة تختلف هندستها خلال المراحل المتعاقبة تبعًا لتغيّر الظروف التي تطرأ على الحاجات السكنية للسكان.
- ظهور مساكن ذات خصائص وأشكال وأحجام تختلف تمامًا عن تلك التي كانت قائمة في المراحل الأولى من التطور العمراني (فيلات وقصور)، نظرًا إلى توفر موارد مالية وفيرة ناتجة عن العمل في قطاعات جديدة بعضها غير شرعي (مثل زراعة الممنوعات).

وأخيرًا، يمكن القول إن الريف في محافظة بعلبك–الهرمل، بمشهده الزراعي التقليدي، وأنماط الحياة السائدة فيه والمرتبطة منذ القدم بالنشاط الزراعي، هو على نوعين:

- يحافظ النوع الأول على الخصائص العمرانية للريف التقليدي الخاص بالمنطقة المدروسة، إذ تتميّز المساكن ببساطة عناصرها (إن من حيث الهندسة الخارجية أو الداخلية للمسكن أو من حيث المواد المستخدمة في بنائه)؛ مما يعني أن هذا النوع من الأرياف لم يشهد تطوّرًا عمرانيًّا ملحوظًا يُذكر؛ وهذا هو الواقع السائد في زبود، ووادي فعرا، وحام ومعربون على سبيل المثال. يغلب الطابع الزراعي على النشاط البشري في هذا النوع من الأرياف، فالسكان ما زالوا يعتمدون في تأمين معيشتهم، على زراعة المحاصيل الموسمية المختلفة، وعلى محاصيل البساتين (أشجار مثمرة).
- بينما أضحى النوع الثاني شبيهًا بمجالات ريفية متحولة أو شبه مدينية، حيث تتقلّص الفوارق بين الريف والمدينة، وتتداخل المجالات الزراعية مع المجالات غير الزراعية، ويتم بناء مساكن جديدة على أطراف القرى والبلدات وفق معايير المساكن الحديثة التي تتجاور مع المساكن الريفية التقليدية الخاصة بالمنطقة المدروسة؛ وهذا هو الواقع السائد في عين بورضاي، ودورس، والنبي شيث، وبريتال، ورأس بعلبك، واللبوة، والعين، وبدنايل وغيرها.

المراجع العربيّة

– الحداد، إ. & الكيال، ي. (2019). **خصائص المساكن الريفية في قرى وبلدات قضاء بعلبك.** *تحولات مشرقية. العدد 18*، 47–81.

– الشمري، ح. (2011). **استراتيجية لتنمية الإسكان الريفي في محافظة القادسية** (تقرير رقم 10). مستند غير منشور، وزارة التخطيط (جمهورية العراق)، الهيئة العليا للتعداد العام والسكان والمساكن، التعداد العام والمباني والمساكن والمنشأة والأسر، سلسلة تقارير الترقيم والحصر.

– طباجة، ي. (2007). ***منهجية البحث***. بيروت: دار الهادي.

المراجع الأجنبية

- Bertrand, G. (1978). **Le paysage entre la nature et la société**. *Revue géographique des Pyrénées et du Sud-Ouest, tome 49,* fascicule 2, 239-258.

- Derruau, M. (1999). ***Géographie humaine***. Paris : Armand Colin.

- Juin-Rialland, C. (2009). **De la géographie rurale à l'analyse des paysages : Le témoignage d'un chercheur**. *L'Information Géographique, volume 73,* 17-29.

- Perigord, M. (1991). **Nouvelle approche de la géographie des paysages. L'exemple du bassin de Brive**. *Norois, numéro 151,* 323-332.

- Pinchemel, Ph. (1981). ***La France : activités, milieux ruraux et urbains***. Paris : Armand Colin.

- Richard, J.F. (1973). ***Essai de définition de la géographie du paysage***. Paris : Centre National de la Recherche Scientifique (Groupe de recherches sur les équilibres des paysages).